التجارة الاسلامية

في عصور مختلفة من الاسلام

لمحمد عبد الغني حسن

التجارة قديمة في بلاد العرب ، وقد كانت عاملاً من عوامل اتصال العرب بغيرهم من الامم المجاورة في الجاهلية . وكثيراً ما التقت في مكة القوافل في رحلتي الشتاء والصيف . ولقد أثرى بعض العرب قبل الاسلام عن طريق التجارة . فكان أبو سفيان تاجراً واسع الثراء . وكان للسيدة خديجة بنت خويلد مال كثير تتجر به ، واشتغل النبي عليه السلام بمالها قبل الزواج بها . ويقول الاستاذ فيل Weil الالماني أن النبي سافر في رحلات تجارية الى اليمن ست عشرة مرة ، ولكن الدكتور سبرنجر Sprenger يكذب هذه الرواية

جاء الاسلام فحثّ على الكسب من طريق شريف ، ووضع للتجارة حدوداً ، « وأحلّ الله البيع وحرّم الربا »[1] . وذكرت كلمة التجارة في القرآن في بضعة مواضع . الا انها جاءت فيما يتعلق بتجارة الآخرة التي لن تبور . ولهذا تحرّج بعض المسلمين السابقين من مزاولة التجارة ، لقوله تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »[2] ولقوله « واذا رأوا تجارةً او لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة »[3]

وقد اشتغل عمر بن الخطاب بالتجارة فكانت تشغله أحياناً عن أخبار الرسول ، وهو يعبر عن أسفه لذلك حينما نسي حديثاً من أحاديث النبي فقال « ألهاني الصفق بالاسواق »

وكانت روح الاسلام المتحرجة من التجارة باقية عند الامويين ولم تترك لهم المنازعات السياسية ، والحرب مجالاً للبيع والشراء

فلما جاء العباسيون تغيرت نظرة الناس الى الاشياء ، وأصبح التاجر الغني موضعاً للتبجيل ومحلاً للاحترام . حتى لقد صارت التجارة سلماً للوزارة ، أو لعلها أدق صار الوزراء يختارون من طبقة التجار ، ففي أيام القائم بأمر الله العباسي اختير نظر الدولة بن جهير للوزارة . وكان في ابتداء أمره فقيراً ثم تاجر وأثرى . وفي أيام الخليفة المستضيء العباسي اختير للوزارة ظهير الدين بن العطار وكان في ابتداء امره تاجراً . ولكنه أنفق على الخليفة في محنته ومحنة

أبيه فاستوزره . وفي أيام المستنصر والمستعصم آخر خلفاء بني العباس ولي الوزارة لهما ابن الناقد البغدادي المعروف بالوزير نصير الدين وكان من ابناء التجار

وكان كثير من الوزراء في العصر العباسي يختارون من أبناء التجار لحسن نشأتهم وجمال تأديبهم وخبرتهم بالآداب العامة . فهذا محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم كان أبوه تاجراً للزيت في أيام المأمون وكان على تجارته غير يسير من اليسار

***

اتسعت التجارة في العصر العباسي اتساعاً لا مثيل له في تاريخ المسلمين ، وأخذت المكان الاول في التجارة العالمية . وكان لها طريقان : السفن والقوافل البرية

ولقد برع المسلمون في ركوب البحر وخاصة أهل سيراف على الخليج الفارسي . فكانوا أخبر الناس بالبحار المعروفة في عهدهم وأعلمهم بالأنواء ومهاب الرياح والمد والجزر

وكان أهل عمان لا يقلون عن أهل سيراف جرأة بالبحار ، وكانت مراكبهم تزحم البحار المعروفة . أما بحر الروم أو البحر المتوسط فقد ركبه العرب وسخروا شاطئيه لسفنهم . وحملوا فيه تجارتهم بين اللاذقية وطرابلس وصيداء وصور والاسكندرية وسواحل المغرب وغيرها . وذكره جماعة من أصحاب الرحلات في كتبهم مثل محمد بن جابر النسائي وغيره . واختار المسلمون بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين الى بلاد الخزر والروس ، وان كان الروس كما يقول المسعودي أول من دخل بحر الخزر في أوائل القرن الرابع الهجري[1] ولكن ابن خرداذبة الجغرافي المشهور وهو أسبق من المسعودي يذكر في كتابه المسالك والممالك ان هناك اتصالاً تجارياً حدث بين الروس وبلاد المسلمين في القرن الثالث الهجري عن طريق بحر جرجان وهو بقية بحر الخزر أو بحر قزوين

أما طرق القوافل فكانت كثيرة المسالك والشعب ، وان كان المسلمون — على الجملة — لم يهتموا بتمهيد الطرق إلا قليلاً . ولقد فطن الفاطميون الى أهمية الطريق البري الصحاري الميل من جنوبي مصر الى شمالها ، فعهدوه بتجديد عمارته كل عام وجعلوا اصلاح هذا الطريق وجهاً من وجوه النفقات في الدولة . ويروي ناصري خسروه الرحالة الفارسي الذي زار مصر في القرن الخامس الهجري أن السلطان كان يرسل كل سنة عشرة آلاف دينار الى عامل معين لتجديد عمارة الجسر

ومن عجب أن المسلمين لم يهتموا بتمهيد الطرق التجارية ورصفها على حين نرى اهتمام كل الامم بحراستها وتأمينها وانشاء خطوط للاستراحة فيها وتزويدها بالماء والطعام . فقد كان في القرن الخامس الهجري درب من مدينة سنجة في خراسان الى مدينة هراة

وكانت المحاط على الطرق البرية تسمى الرباطات ، وفي كثير منها — كما يقول الاصطخري — اذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه ان احتاج الى ذلك . ولم تعرف الرُّبط « الرباطات » في مصر قبل عهد الدولة الايوبية

وقد اقيمت الجسور على الأنهار وكان منها كثير على نهر دجلة والفرات وجيحون والشاش وطاب وسنجه « فرع من دجلة » . وكانت قنطرة سنجه من عجائب الدنيا ذات عقد واحد من الأحجار الضخام . وبالرغم من سهر الخلفاء والعمال على تأمين الطرق نجد أن بعضها عرف بالخوف وكثرة الامراض وقطاع الطرق . وكان الطريق الذي يتفرع من سمرقند الى بلاد الصين معدن الخوف ولهذا تحاماه المسافرون . كما كان الطريق الذي يقطع ايران عرضاً من شيراز الى نيسابور . ولهذا لم يرد له ذكر في كثير من كتب الرحالة المسلمين

والدولة البويهية فضل أي فضل في تأمين الطرق التجارية في ايران وشرقيها ، وأول من صنع ذلك عضد الدولة فقد ابتنى مخفراً على الطريق العام وزوده بالحراس إلا أن ذلك لم يجد على الأمن شيئاً . فقد سار فيه المقدسي صاحب « أحسن التقاسيم » في القرن الرابع ووصف اللصوص فيه بأنهم (لهم قلوب قاسية وبأس وجلادة ، لا يبقون على أحد ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالاحجار كما تقتل الحيات) . وكانت حركة طرق القوافل تضيق وتتسع تبعاً لأمن الطريق وطروقها وتوفر الراحة فيها . فكان كثير من التجار ينتهزون أمن الطريق بين بغداد ومكة في موسم الحج فيخرجون في حماية قوافل الحج المنهالة من كل فج عميق

وما أكثر ما كانت طرق القوافل الافريقية الشمالية والشرقية ، واستطاع تجار المسلمين أن يطوفوا ببلاد الحبشة وسنار وكردفان ومنها الى دارفور . وكانت قوافلهم تسير عبارة صحراء أفريقية الى شمالي الصحراء الاطلسي اليوم أو بحر الظلمات كما كان يسميه مؤرخو المسلمين

***

كانت التجارة الاسلامية في العصور المختلفة للاسلام في قبضة تجار من المسلمين غالباً ، وان اختلفت جنسياتهم . ولكن اليهود لم ينخلعوا في هذا الميدان ، بل اجتمعت في أيديهم تجارة أوربا وخاصة في الرقيق والفراء والصقلب . وأثروا في هذا ثروة عظيمة . ولكن الكثرة كانت للمسلمين . فكان يرأس التجار مسلم ، ولا يقبل فيهم إلا حكم المسلم . حتى في البلاد التي يقل فيها عدد المسلمين مثل بلاد الخزر وغانه وصيمور بالهند .

وكان لليهود بالمسلمين أمثال العراق وفارس في القرن الرابع الهجري ، بل كانوا أصحاب معاملات واسعة في بلاد الخزر . فقد ذكر الرحالة بنيامين اليهودي في رحلته — في القرن السادس الهجري — ان أحد اليهود كان قائماً في وقته بتصدير الفراء

وذكر ابن الفقيه صاحب كتاب البلدان ان التجار اليهود كانوا يأتون من مقاطعة بروفانس من بلاد الفرنجة (فرنسا) بالخدم والغلمان والجواري والديباج . كما ذكر ذلك ابن خرداذبة في القرن الثالث الهجري . وكان هؤلاء اليهود يسمون عند العرب بتجار البحر . كما كانت تجارة البسط الفارسية عديمة « تستر » في يد اليهود

* * *

كانت المملكة الاسلامية خليطاً من أجناس مختلفة تجمعهم رابطة الاسلام ؛ ولهذا كان لكل جنس منهم خصائصه المميزة له . فللعناصر الرومية والهندية والفارسية التي اعتنقت الاسلام نشاط عجيب في التجارة ، وللسوريين كذلك نشاط ظهر في تجارة طرابلس وصيدا وبيروت وجبيل في بحر الروم . وكانت مصر بلداً تجاريًّا إلاَّ أن أهلها لم يكلفوا أنفسهم عناء الرحلة والانتقال والتجوال في التجار أو القفار كما فعل أهل الصين وسيراف والبصرة وهؤلاء الاخيرون كانوا أقل الناس حنيناً الى أوطانهم . فقد روى هذا البيت مكتوباً على حجر :

ما من غريب وان أبدى تجلده إلاَّ سيذكر عند العلة الوطنا

وقد كتب تحته : إلاَّ أهل البصرة ! !

أما أهل الرميلية فلم يخرجوا لعمار التجارة مع الطائفين ، بل اخذوا لهم مبدأ آخر يتفق مع مواهبهم في الجوف ، فكان منهم القواد مثل بدر الجمالي الذي قلد وزارة مصر الادارية والعسكرية في عهد المستنصر الفاطمي ولقب بأمير الجيوش

***

اقتضت حالة التجارة الاسلامية الواسعة وجود كثير من الثغور والمدن التجارية ، كما اقتضت وجود أسواق ترخص فيها السلع . أما الثغور فكان منها البصرة ، وعدن وسيراف ، وعمان ، وصحار ، وجدة ، والطائف التي كانت في القرن الثالث الهجري أهم ميناء تجاري في بلاد اليمن . وكان الناس الذاهبون الى مصر يصفون ميناءها بأنه « عجيب يحتمل الف مركب » وصف ينطبق على حالة التجارة الصعبة الحربية ، فكان فيها دار للصناعة ، وتخرج منها مراكب للغزو ، ومثل هذا يقال عن ميناء طرابلس وتونس

وكان المسلمون يهتمون بهذه الثغور ويوفون عليها ، ويمهدونها بالاصلاح والوقاية ، فقد ذكر ابن خرداذبه أن المعتصم العباسي حفر ميناء الطائف ، وذكر المسعودي والناصري خسرو أن خليج العقبة الذي كان به أخدوده من الخشب لتعلو سطح البحر بخمسين متراً ، وفي أعلاها حجرة من خشب للغزو وهؤلاء المؤرخون كانوا يرونه آثاراً باقية حتى تهتدي السفن بها فلا

تصطدم بالجزيرة الكائنة في وسط الخليج فتعطب. وكان بها حامية وجند لمكافحة متلصصي البحار

وكانت المكوس تفرض على السلع في كل ثغر، وقد ذكر ابن البلخي ان المكوس التي كانت تؤخذ من المراكب بثغر سيراف بلغت نحواً من ٢٥٣ الف دينار في العام. وذكر ياقوت الرومي صاحب معجمي الادباء والبلدان أن المكوس كانت تجبى بمدينة عبّادان على السفن الذاهبة الى البصرة

أما الاسواق التجارية فكانت لتصريف السلع والبيع والشراء، الا أن الصفة الادبية التي كانت لمثل سوق عكاظ وذي المجاز في الجاهلية قد زالت في العصر الاسلامي. وأصبحت الاسواق للتجارة فقط. فلم يجلس فيها واحد للحكم بين الشعراء. كان لكل بلد يوم خاص بالسوق كما هو الشأن في زماننا اليوم، فسوق بغداد يوم الثلاثاء، وسوق القيروان — كما يروي المقدسي — في يومي الاحد والخميس

واذا كان لبني بويه فضل تأمين الطرق كما ذكرنا سابقاً، فلهم فضل العناية ببناء اسواق للتجارة، فقد ذكر صاحب أحسن التقاسيم أن عضد الدولة بنى عند مدينة رام هرمز أسواقاً وكانت غاية في الحسن نظيفة قد بلطت وظللت وزوقت وبرقت وجعل عليها دروب تغلق في كل ليلة. ويذكر المقريزي في خططه طائفة من الأسواق المصرية في عصره، وكل سوق يختص بسلعة معينة كسوق الدجاجين وسوق الشماعين وسوق الحلاويين وسوق الكتبيين وغيرها

وكانت التجارة الاسلامية تفيض على أصحابها خيراً واسعاً من الثروة. فكان أهل سيراف يسكنون مساكن عالية مبنية من خشب الساج الهندي الثمين، ويذكر الرحالون المسلمون من قوم من أغنياء التجار. فابن سعيد صاحب كتاب المغرب يروي أن أغنى تجار مصر وأجلهم في أواخر القرن الثالث الهجري كان عثمان بن سليمان البزاز وأنه لما مات أخذ الاخشيد من ماله نحو مائة الف دينار. وكان بعض هؤلاء التجار يلجأون الى الغش في السلع ورفع اسعارها واحتكارها وحجزها عن السوق، والتطفيف في الكيل والميزان والغلظة والخشونة في المعاملة مما لا يتفق مع آداب الاسلام، لقوله تعالى «ويل للمطففين» الخ الآية. ولقوله عليه السلام «من احتكر طعاماً على امتي اربعين يوماً وتصدق به لم يقبل منه»

وكان في اخلاق التجار في القرن الثالث الهجري ما يعض التجارة الى ابي القاسم التنوخي الشطرنجي الذي مدحه ابن الرومي بقوله:

ورفعت التجارة لجة الربـــح وما في مراسها من حداء
لم تبع طيب عيشة بفضول دونه حسن عيشة كدراء
تعب النفس والنهاية والذلـــة والخوف واطراح الحياء